زيد الحرب والعزف على أوتار الأمة

د. حصة سيد زيد الرفاعي*

الملخص:

يتناول هذا البحث علماً من أعلام الشعر الشعبي في الكويت، وهو الشاعر زيد الحرب. ويبدأ بالتعريف بحياته، ورحلة كفاحه في سبيل لقمة العيش؛ فقد مارس زيد الحرب – كما سائر الكويتيين قبل ظهور النفط – حياة البحر، وخبر مهنة الغوص، وتولى قيادة إحدى سفن النقل التجاري، وهيأت له هذه الرحلات سبل الاطلاع على ثقافات الشعوب الأخرى، وأمدته بخبرات ومعارف واسعة.

ويكشف البحث عن ثقافة الشاعر في مجال التراث العربي الإسلامي الذي يستلهم منه قيمه ومثله العليا. كما يتتبع مدى انشغال زيد الحرب بالشأن العام المحلي والعربي، وتوظيفه تلك القيم والمثل نماذج تحتذى في دعوته الإصلاحية.

ثم يستعرض بناء قصائد زيد الحرب التي صاغ بعضها على نسق القصيدة العمودية والبعض الآخر على نظام المقطوعات المعروف في الشعر الشعبي.

ويختتم البحث بدعوة الدارسين إلى التمييز بين الشعر الشعبي والعامي، لا بمعيار اللغة وحدها، بل على أساس السمات العامة التي تميز هذا النمط الشعري بخاصة والمأثور الشعبي بعامة، عن غيره من ألوان النشاط الإنساني.

ويخلص إلى أن الشعر الشعبي يخضع إلى حد كبير، لأبحر القصيدة العربية وأوزانها، مع مراعاة بعض الظواهر اللغوية التي تؤثر في مدى التزامه العروضي.

* دكتوراه في اللغة العربية (علم الفولكلور) من جامعة إنديانا، بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٢م، عضو هيئة التدريس بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الكويت.

إضاءة:

زيد الحرب شاعر كويتي معروف تفوق على شعراء عصره في إبداع قصائد عبقت بحب وطنه الكويت وأمته العربية، وهو على الرغم من أميته، كان متابعاً جيداً لقضايا المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ فشعره مرآة واضحة لهذه القضايا وتسجيل حي لهذه الهموم وكيفية التصدي لها. وكانت لزيد الحرب رؤى إصلاحية ثاقبة مكنته من ملامسة جراح الأمة واقتراح سبل علاجها بقلب المواطن المخلص الذي يؤثر الصالح العام على منافعه الشخصية.

ومعلوم أن الناس في الحياة نوعان؛ نوع يلهيه شأنه الخاص عن الدنيا، ويختار العيش على هامشها مكتفيا بالفرجة، ونوع تشغله الدنيا بحلوها ومرها وضجيجها، فيجعل قلبه وعاء لآلام قومه، وأحلامه المثلى صوتاً يرتفع في وجه الظلم والقهر والاستبداد. وقد اختار زيد الحرب أن يكون من الفئة الثانية؛ فلم يقف متفرجاً على ما يدور في مجتمعه من انحراف وما يعتري أمته من تخاذل وهوان، بل اختار المواجهة والتصدي للظواهر السلبية بقلبه وشعره بشجاعة وإصرار قلما يتوافران لغيره من الشعراء. ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في منظوماته الشعرية التي قامت بجمعها ابنته الشاعرة غنيمة زيد الحرب في ديوان يحمل اسمه. قدمت له بنبذة عن تاريخ حياته ورحلة كفاحه الشاقة في سبيل لقمة العيش، ذلك الكفاح الذي لم يمنعه عن صوغ أشعار جميلة معطّرة بحب وطنه والولاء له مع إدراكه أن كرامة الوطن جزء من كرامة الأمة العربية.

وعلى الرغم من سجل زيد الحرب الشعري الحافل، فإنه لم يحظ باهتمام دارسي الشعر الكويتي إلا بإشارات عابرة ضمن دراسات عامة عن الشعر الشعبي الكويتي على وجه الإجمال. وما عدا هذه الإشارات والديوان الذي أصدرته ابنته، لم نوفق في العثور على دراسة وافية عن الشاعر.

وانطلاقاً من إيماننا بأهمية البحث الميداني الذي يشكل حجر الأساس في الدراسات الشعبية، وإدراكنا التلازم الحتمي بين الإبداع وشخصية المبدع على أنها مفاتيح مهمة في الولوج إلى أغوار إبداعه واستنباط دلالاته الفكرية

والروحية، رغبنا في لقاء أحد أفراد عائلة الشاعر لكي نكمل هذا الجانب المهم، ولكن أملنا لم يتحقق لظروف خارجة عن إرادتنا.

وعلى الرغم من المعوقات الكثيرة التي واجهتنا في دراسة الشاعر زيد الحرب أهمها عدم توافر المراجع اللازمة للبحث، فإننا عولنا على خبرتنا الطويلة في مضمار الدراسات الشعبية في تتبع أهم الأحداث والوقائع التي شكلت محاور أساسية في تجربته الشعرية، وأعاننا ذلك على استشفاف أهم العوامل التي أمدت الشاعر بروافد إبداع لم تنضب حتى آخر دفقة من روحه الطاهرة.

وأخيراً نلتمس عذر القارئ العزيز عن أي خطأ يعثر عليه في تضاعيف هذا البحث فهو بحث رائد، وحسبنا شرف المحاولة.

زيد الحرب: الفنان الإنسان

لن نأتي بجديد في استعراض حياة الشاعر زيد الحرب التي قدمت بها ابنته غنيمة ديوانه، ولكننا نأمل في الكشف عن بعض السمات النفسية والفنية التي استنبطناها من ثنايا قصائده التي دلت على خصائص مميزة تفرد بها الشاعر الحرب بل تفوق على غيره من شعراء الخليج والعالم العربي.

ومع ذلك لا بد لنا من تقديم شذرات من سيرة الشاعر الذاتية تعيننا على تلمس تلك الملامح الواضحة في إبداعاته الشعرية. فالإبداع – كما أشرنا – لا يمكن بأية حال، فصله عن المبدع والظروف التي شكلت البذور الأولى لهذا الإبداع، علاوة على موهبة الفنان الفطرية.

ولد الشاعر زيد عبد الله إبراهيم الحرب عام ١٨٨٧م، وعاش مع والديه وأعمامه في منزل جده حيث كان الكويتيون، قبل اكتشاف النفط، يعيشون في نظام الأسرة الممتدة. وامتهن الغوص في بواكير شبابه مع والده وأعمامه في سفينة يملكها عمه عبد العزيز الحرب. وكان، على عادة البحارة الكويتيين، يسافر صيفاً في رحلة الغوص على اللؤلؤ، ثم يخرج ثانية في رحلة أخرى شتاء للاتجار بالبضائع بين موانئ الهند وأفريقيا.

وفي إحدى رحلات السفر التجاري مرض عمه فأوكل إليه قيادة السفينة.

وحينما توفي العم تم دفنه في اليمن. وانتقل الشاعر بعد وفاة عمه إلى العمل في سفن أخرى. وتولى قيادة إحدى سفن غوص الردة، والردة رحلة غوص قصيرة تعقب رحلة الغوص الكبير ويمارس فيها الغوص في الشواطىء القريبة من الكويت[١]. وكان الشاعر يتبادل نظم القصائد مع رفاقه في الرحلة.

وكان يسافر أيضاً للاتجار بالبضائع حتى في الظروف الصعبة وزمن الحرب.

وعندما أصبح وطنه الكويت مهدداً من قبل الأعداء، شارك الشاعر في حرب الجهراء، وساهم مع إخوانه الكويتيين في بناء سور الكويت لحماية البلد من الاعتداء الخارجي.

وبعد اكتشاف النفط وتوقف رحلات الغوص والسفر، عمل الشاعر في مجال التنقيب عنه.

وفي مرحلة لاحقة أصيب الشاعر بفقدان النظر (١٩٥٢)، ولكنه لم يفقد بصيرته المتوقدة دائماً التي ندر أن تتوافر لدى المبصرين.

ونظم في ذلك أبياتاً عبرت عن خيبة أمله بما أصابه وشعوره بالعجز الشديد. يقول:

ما تنفع الدنيا بلا شوف وعيان وعزّي لمن مثلي عيونه عصاته

أقعد أنا واقوم مابين نسوان ولا يضفي المجمول على عباته

ومن أول لي جيت كالذيب سرحان محد يامني إجي حول شاته

واليوم لو أرقد معاهم بليوان ما يخاف مني لو أبات في مباته[٢]

واستمر الشاعر يجاهد بالكلمة المخلصة والحس المرهف، وينافح عن

---

(١) حصة الرفاعي، (١٩٨٥م)، أغاني البحر في الكويت: دراسة فولكلورية، الكويت، ص٩٨.

(٢) غنيمة زيد الحرب، (١٩٧٨م)، ديوان زيد الحرب، الكويت، ص١٩٥.

الحق سواء في وطنه أو خارجه. لم يفت العمى في عضده، ولم تنل العاهة من شريان إبداعه المتدفق بالعطاء.

و تعاورت المحن على الشاعر منذ فترة باكرة في حياته، ففقد زوجته الأولى التي رثاها بقصيدة مؤثرة يقول فيها:

يا مل قلب من تصاريف الاشطانْ إن قلت هوّد زاد عيا يليج(٣)

وتزوج الشاعر مرة أخرى ولم يكتب له التوفيق، وفي المرة الثالثة رزق بولد توفي في العام الأول لميلاده، ثم رزق بابنتين، كبراهما شاعرة وزوجة الشاعر المعروف يعقوب السبيعي والثانية الشاعرة غنيمة زيد الحرب التي استقينا من كتابها سيرة شاعرنا الذاتية، وقصائده المؤثرة.

وتمضي الحياة بالشاعر زيد الحرب وهو يصارع بشعره قوى الظلم ويكشف عن مواطن الفساد التي أودت بمجد العرب وأدت إلى خذلانهم. ولكنه لا يفقد إيمانه بحدوث معجزة تصلح أحوالهم وتعيد لهم العزة والسؤدد. ولا يقف الشاعر عند حد الأمنيات بل يدلهم على طريق الصلاح الذي يبلغونه باتحادهم في وجه المعتدين والطامعين:

واطلب من المعبود ينزاح الغمام ونتولف كل حبيب مع حبيبه

هذا ان صفا العراق مع مصر والشام واجتمع الحجاز ورباط المغيب

والعرب تحكم وتضفي بالكمام ونطرد الصهيون مع أهل الصليب

هذا هوى بالي وشفي والمرام وكل علة تبرا وانا جرحي يطيب(٤)

وقد استشهدت الباحثة غنيمة الحرب بهذه الأبيات للدلالة على أمل الشاعر في تحقق الوحدة العربية التي لا تأتي دون نضال وكفاح.

---

(٣) الديوان، ص١٤.

(٤) الديوان، ص٢٤.

ونلاحظ اتجاه الشاعر نحو التوحد مع الحدث الذي يتناوله في قصيدته. وعلى الرغم من أن ذلك الحدث لا يعدو كونه أمنية يسبغ عليها الشاعر سمة الواقع فتبدو أمراً سهل المنال، فإن القارئ يشعر بالفرح والتفاؤل وهو يتابع إحساس الشاعر بالبهجة ويلمس غبطته بالحلول التي يطرحها والتي سوف تسعده وتشفي جراحه. وغالباً ما يؤدي ذلك إلى الامتزاج بين الأنا والنحن، وهذه سمة بارزة في شعر زيد الحرب سوف نناقشها فيما بعد.

وعلى الرغم من أمية الشاعر زيد الحرب، فإن إبداعه الشعري يدل على ثقافة واسعة وذكاء حاد متوقد في تحليل المشكلات الاجتماعية والسياسية، وطرح الحلول العقلانية المناسبة، على ضوء الواقع المعيش. فالوحدة العربية مثلاً مرهونة باتفاق الرأي العام العربي ونبذ الخلافات بين الحكام، والتفكير في مصلحة الوطن العربي وصونه من الاستغلال الأجنبي، وهذا لايكون إلا بالحرب والجهاد وعدم التخاذل والتفاوض مع العدو.

ويتمثل الشاعر بحوادث تاريخية وشواهد بطولية تدل على معرفة عميقة بالتاريخ العربي الإسلامي ثقفها الشاعر مما سمع ووعى من روايات حفلت بها ذواكر الرواة وضمتها بطون الكتب والمدونات. وعلى الرغم من أن وسائل الإيصال آنذاك مقصورة على المذياع وبعض المطبوعات المستوردة فإن الاهتمام بالثقافة والحرص على متابعة مجريات الأمور كانت سمة غالبة في زمن عزت فيه روافد المعرفة.

ومعلوم أن الشاعر زيد الحرب كان – كما أغلب الكويتيين – بحاراً يصطاد اللؤلؤ ويجوب البلدان المختلفة للاتجار به وبغيره من البضائع. وكانت أسفاره نافذة مشرعة على ثقافات الشعوب الأخرى. إضافة إلى حرص ربابنة سفن السفر التجاري على اصطحاب رواة القصص والسير المعروفين باسم (المسولفجية: جمع مسولفجي)، وكانت الغاية من ذلك تنظيم نوبات الحراسة على ظهر السفينة. فالراوي يساعد البحارة على البقاء مستيقظين، يتابعون بشغف ما يردده من حكايات تاريخية ودينية وسير بطولات مستقاة من التراث

العربي، وهذا بحد ذاته مصدر مهم من مصادر الثقافة في مجتمع البحارة، علاوة على ترديد الحكم والأمثال وسرد التجارب الشخصية والمغامرات والأهوال التي يتعرض لها البحار وهو يمخر عباب المحيطات ويصارع الأمواج العاتية على ظهر سفينته الشراعية الصغيرة(٥).

هذه العوامل جميعها ساعدت إلى حد كبير على اتساع مدارك الشاعر وإثراء حصيلته من المعارف التي أفادته في صياغة أشعاره العميقة، ولانغفل ذكاءه الشديد ورهافه حسه وإخلاصه اللامحدود لوطنه وعروبته، مما حدا به إلى توظيف كل إمكاناته الثقافية وطاقاته الشعرية لهذا الغرض النبيل.

يقول في قصيدة (قل هو الله أحد) حاثاً العرب على مجاهدة الأعداء كما فعل أجدادهم الأولون:

قـل هـــو اللـــــــــه أحد خالق الأرواح في وسط الجسد
الواحد المعبود عالي في سماه مقسم الأرزاق ما ينسى أحد
ثم صلاتي على النبي سيد قريش الذي للدين بمر الله اجتهد
طيعوا المختار وما قال الرسول واشهدوا له الحق فيما هو شهد
وامسكوا القرآن واياته الشريف والعنوا من خان بآياته وجحد

إلى أن يقول ناصحاً العرب بالتوحد والجهاد من أجل الاستقلال والحرية:

ياعرب قوموا بعزم الله سوى أنتم ليوث الحرب وافين العهد
واربطوا حبل الوصل ما بينكم في صناجلها وحبل من مسد
ما يوخذ استقلال في طيب وهون إلا بحد السيف لي حل الوعد

(٥) أغاني البحر، ص١٤٣.

وأمهات أم خمس مصقول السلاح وفي أطواب الروس شدخوا كالرعد[٦]

وما فعل خالد وطارق بن زياد وما فعل حيدر وحمزة مع سعد

وسيلوا الوديان من دم العدو من دم قوم السبت مع قوم الأحد

وطهروا دياركم من اليهود لعيون صافي الخد مركوز النهد

ثم يقول محذرا إياهم من التخاذل والتفاوض مع العدو:

واعلموا كثر المفاوض ما يفيد ومجلس أمريكا خارب مابه سعد

وافعلوا بأفعال أبا بكر وعمر واتركوا كثر النمايم والحسد

مع ذه وسلامي للعرب كلهم يميع سني وشيعي ومسيحي ومن سجد

والوكيل الله ما هو أنا وكيل كل على دينه ويلقى ما عبد[٧]

ويتبين لنا إدراك الشاعر الفرق بين نصارى أوروبا وأمريكا من المستعمرين ومسيحيي العالم العربي ممن يجدر بنا أن نتعامل معهم على أنهم إخواننا في العروبة. وهو بهذا يلتزم تعاليم الإسلام في احترام الديانات الأخرى.

ولا ريب أن شاعراً كما زيد الحرب، رقيق الإحساس، نابض القلب بحب وطنه، معتزاً بهويته القومية، نذر حياته للدفاع عنها بكل ما يملك من أسلحة الشعر، لابد أن يهوي مبكراً من صهوة إبداعه كما يهوي البطل في المعركة. ليس مهزوماً فيها بل مخذول من قدر أقوى منه ومنا جميعاً. أخرس صوت همته وحطم سيف يراعه المسلول. فقد مرض شاعرنا وغالب المرض لسنوات في شجاعة لم يستطع معها الداء أن يخمد جذوة مشاعره المتقدة أبداً، ولكن الأجل

(٦) أمهات أم خمس: البنادق.

(٧) الديوان، ص١٥٠.

المحتوم وافاه في ٢١/٢/١٩٧٢م، وهو يعد ابنته غنيمة بعقود من لآلئ شعره، تنظمها في كتاب.

وغاب زيد الحرب، ولكن ذكراه العطرة تبقى خالدة في قصائد جميلة عابقة بحب الوطن والحرية والكرامة العربية.

وبعد سنوات قليلة، برت الابنة الوفية بوعدها، وأصدرت ديواناً يجمع بعض شعر أبيها مما سمعت منه، ومما روى لها صحبه وعشاق شعره. ولكن بعض القصائد ضاع، باعتراف الابنة، في عالم النسيان، مع أن ما بقي من شعر زيد الحرب يظل شاهداً على موهبة قلما يجود بمثلها الدهر.

الشعر قيثارة زيد الحرب:

زيد الحرب شاعر شعبي بكل المقاييس المتعارف عليها عالمياً، ولا نعني بذلك نظم الشاعر قصائده الرائعة باللهجة المحلية، فالعامية ليست معياراً كافياً للحكم على شعبية النص؛ لأن للأدب الشعبي عموماً والشعر الشعبي تحديداً خصائص تميزه عن سواه من أنماط الإبداع الإنساني. وتقوم هذه الخصائص على أساس قبول الناس للإبداع وتداوله إذا ما وجدوا فيه تعبيراً صادقاً عن نبض حياتهم ورؤاهم المستقبلية في عيش أفضل. ولا تقل الوظيفة الاجتماعية أهمية عن عامل القبول الجمعي؛ فالشاعر الشعبي لا يختلف عن غيره من الشعراء في تصديه لكل ما يعترض مجتمعه من محن وأزمات، بل إن شعره القريب من لغة الخطاب اليومي، أمده بقدر أكبر من المفردات يصوغ بها هموم مواطنيه، ويكشف عن أملهم في مستقبل أفضل. ولا ينال من شعبية النص الشعري كون الشاعر معروف الهوية مادامت منظوماته تخطت دائرة الفردية الضيقة إلى موقع أرحب وأكثر شمولية يؤهله لتبني قضايا شعبه المصيرية. وكلما نجح في مهمته ازداد احتفاء الناس به وأقبلوا على التغني بإبداعه الذي يكتسب بمرور الزمن هوية قومية مميزة.

هكذا كان زيد الحرب، سواء فيما عالج من أمور حميمة متجذرة في نسيج وطنه وأمته، أم في أسلوب صوغ شعره وفق الأشكال الفنية الخاصة بالشعر

الشعبي[٨]، علاوة على امتلاكه طبيعة شفافة أعانته على قراءة الأحداث واستكناه دلالاتها بفطنة ثاقبة لم تتوافر لشاعر آخر.

هذه القدرات الهائلة المقترنة بطاقات إبداعية ثرية، كفلت للشاعر التفوق على منافسيه.

أما الأغراض التي تناولها زيد الحرب، فلا تخرج عن نطاق الأغراض المتداولة في الشعر العربي سواء الفصيح أوالعامي، وقد استعرضتها الباحثة غنيمة زيد الحرب في الديوان، ولا حاجة بنا لتكرارها. كما أن بعض قصائد زيد الحرب يتداخل فيها أكثر من غرض، حيث يمتزج المدح بالشكوى وربما يختلط ذلك مع النصح والإرشاد أو العتاب. والواضح أن الشاعر يتخذ من بعض الأغراض مدخلاً لقضية مهمة يطرحها سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية وهذا ملمح بارز في قصائد زيد الحرب سوف نكشف عنه في معرض حديثنا عن خصائص شعره.

أولاً – قضايا شعر زيد الحرب ودلالاته:

الشاعر لسان حال أمته؛ الشاعر زيد الحرب لم يكن فقط ناقلاً لما يرى ويشهد من أحداث ومواقف إنسانية، بل كان منغمساً فيها، متغلغلاً في أعماقها، منفعلاً بتفاصيلها الدقيقة، مما يدل بوضوح على امتزاج الشاعر بوجدان قومه.

ومما كثّف هذا الامتزاج خوض الشاعر الحرب تجارب «حياتية» مماثلة لتجارب الآخرين أهلته للتعبير عنها بصدق خالص يؤثر في نفس السامع أو القارئ.

ونستشهد على ذلك بقصيدته المشهورة (عسر الدهر) التي أوردنا بعضاً منها في كتابنا (أغاني البحر في الكويت: دراسة فولكلورية، ١٩٨٥م). وذكرت غنيمة زيد الحرب نصّها كاملاً في ديوان زيد الحرب، ونظمها في عام الكساد الاقتصادي الذي أصاب تجارة اللؤلؤ في الكويت عام ١٩٢٩، ويسائل فيها

(٨) أغاني البحر، ص ص١٧٥–٢٤٥.

الشاعر تجار اللؤلؤ عن حصيلة جهد الغواص المسكين في صيد اللآلئ خلال موسم الغوص الشاق المضني. يقول:

عسر الدهر شابح زنودي بكمبارْ والوي على العرقوب زنجيل الافكارْ[٩]

وظليت انا من دار لي دار محتار تايه بغبات الفكر والهواجيسْ

وبعد تصوير معاناته من عسر الدهر وجور الأيام التي تناولها في عدد من الرباعيات التي تشكل بنية القصيدة، يعرج الشاعر على موضوعها الأساسي:

وتجارنا عقب المعرفة جفونا زل الشتا يا حمود ما سقّمونا[١٠]

ما دري عسر فيهم والا نسونا الله عليهم وان نووا بالتعاكيس

هم ما دروا باللي جرى الغوص كلّه مثل الحمير ننقاد خمسة أهله[١١]

نشكي العرا والجوع ويا المذله ونركض بخدمتهم سوات البنابيس[١٢]

بالله عليهم وين ذيك التبايبْ قل لي غدت بين الخلايج نهايب[١٣]

والا عليها غلّقوا بالعصايب بس حاسبونا بالحبر والقراطيس

وين القماش اللي من الدر جبنا الله عليهم ان كلوا من تعبنا

---

(٩) شابح زنودي: مقيّد يديّ.

(١٠) زلّ: حلّ، سقمونا: دفعوا أجورنا، والتسقام: مقدم سلف يدفعه التاجر للبحار قبل رحلة السفر التجاري.

(١١) خمسة أهلّة: خمسة أشهر.

(١٢) البنابيس: العبيد.

(١٣) نهايب: عرضة للسرقة.

ما تعتمر دار بالظلم تبنى شيء يغضب الله ويرضى به ابليس

قالوا العذر يا زيد جتنا علومكْ واحنا بعد والله هم ما نلومكْ

مير استعن بالله يقوّي عزومك لم يجي شملان نرخي لك الكيس

قماشنا بالهند والله طايحْ واحنا غدينا ما بين شاني وصايحْ

هذي السنه صارت علينا فضايح انتم تبون فلوس واحنا مفاليس..

نستشف من المقاطع المذكورة أن الشاعر لم يتكلم فقط على لسان البحار المظلوم الذي سلب التاجر حقه وثمرة جهده وعرقه، بل ينقل لنا وجهة نظر تاجر اللؤلؤ وهو يشرح للشاعر الظروف العصيبة التي حالت دون بيع المحصول والإيفاء بمستحقات البحارة في موعدها المقرر، ويطلب منه الصبر حتى يعود (شملان)، أحد تجار اللؤلؤ الذي سافر لبيع حصيلة الموسم في الأسواق العالمية. وقد عاد التاجر فيما بعد وهو يحمل الربح الوفير.

ويسترعي انتباه القارئ أسلوب الحوار الدائر بين الشاعر والتجار وهم يطلبون منه التذرع بالصبر وانتظار الفرج.

ولعل الشاعر أراد بذلك أن يخفف من حدة التوتر بين الطرفين، نظراً لحاجة كل منهما إلى الآخر. فالتاجر والبحار كفتان متعادلتان في ميزان الاقتصاد الكويتي ولهذا السبب لانتفق مع أحد الدارسين الذي فهم القصيدة على أنها (صورة لانحراف العلاقة بين التاجر والبحارة الأجراء، ومماطلة التجار في دفع حقوقهم)[١٤]. فالتجار لم يتخلفوا عن دفع مستحقات البحارة إلا لكساد أصاب تجارتهم، وقد فهم الشاعر هذا العذر وضمنه قصيدته.

وتتوالى مقطوعات هذه القصيدة الطويلة ليتطرق الشاعر إلى التغير الذي

(١٤) عبد الله العتيبي، (١٩٨٤م)، دراسات في الشعر الشعبي الكويتي، الكويت، ص١٨.

طرأ على أخلاق التجار من المروءة والجود إلى القسوة والتسلط. ويستطرد في شرح العلاقة الحميمة بين البحارة وأصحاب السفن. فلولا الغواصون لما استطاع التجار الحصول على اللؤلؤ عصب الاقتصاد في الكويت؛ فالبحار بمنزلة الثروة الزراعية التي لاتقوم إلا بالنخيل.

ولا شك أن زيد الحرب كان يتحدث عن أزمة حقيقية مر بها مع زملائه من الغواصين؛ فهو في هذه المرحلة من حياته كان بحاراً يمتهن الغوص على اللؤلؤ، وينتظر مقابل عمله بفارغ الصبر.

ثم يخاطب الشاعر أمير البلاد ناصحاً إياه بأهمية الاتكال على العمالة الوطنية لما تحمله من إخلاص للوطن لا يتوافر لدى الغريب. و يعرج على ذكر أقوام سادوا ثم بادوا نتيجة خضوعهم للأجانب وانضوائهم تحت لوائهم. يقول:

حنّا لكم مثل النخل والزراعهْ وحنا خزاينكم وحنا بضاعهْ

أهل الوطن مخصوص بامر وطاعة والا الغريب ان هج خلّوه ببليس[١٥]

وين الرشيد أهل السيوف الهنادي اللي حكموا نجد حضر وبوادي

ويا ما قطموا بالسيف خشم الأعادي واليوم ما يسوون خمسة تفاليس

ووين الشريف أشراف حضر وبدوان سيد الجميع مطوّع كل من كان

من بيت الرسول وسلسلة سيد الاكوان راحوا من الحجاز كلهم مفاليس

حتى يقول:

وانت اعتبر يا شيخ وراع الرعايا دنياك هذي تنطوي كالحزايا

جدك ترى مبارك معطي العطايا مصخّر صم الرمك متعب العيس[١٦]

---

(١٥) هج: غادر.

(١٦) العيس: الإبل.

ويختم القصيدة بالصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائلاً:

تمت وذكروا الله يا الحاضرينا وصلوا على المدفون بارض المدينة

أحمد رسول الله واحنا تابعينه مع الصحابة اهل القبور المداريس[١٧]

هذه القصيدة الرائعة في صورها، العميقة في دلالاتها عكست، بحق، ثقافة الشاعر التراثية والتاريخية الواسعة. تلك الثقافة التي أحسن توظيفها في طرح أفكاره ومشاعره لتنضح بالصدق والواقعية. فشاعرنا على الرغم من أميته، واسع الأفق، حاد الذكاء، منحه الله موهبة فطرية فذّة، وكل ذلك ساعده على امتلاك نواصي الشعر وامتطاء صهوة ريادته.

وهذا يلزمنا بإعادة النظر في مفهوم الثقافة الذي يربطه الكثيرون بالقدرة على القراءة والكتابة، تلك القدرة التي لم تتيسر للغالبية العظمى من أفذاذ الثقافة الشعبية من شعراء ومبدعين تفوقوا بأدواتهم الفكرية والفنية على كثير ممن نعدهم مثقفين وفق المعيار الضيق للثقافة. فالثقافة ليست حكراً على العارفين بأصول القراءة والكتابة؛ لأنها عالم رحب يتخطى ذلك إلى المعايشة الفعلية لتفاصيل الحياة بكل مداراتها الاجتماعية والسياسية والتاريخية والاقتصادية[١٨].

والشاعر إن لم يستطع أن يقرأ، فهو يسمع ويطلع ويتابع ويناقش. وبهذا كله تتكون حصيلته الفكرية من خلال الوعي والقدرة على سبر أغوار الواقع ومتابعة جميع التحولات التي تطرأ عليه.

والشاعرالفنان يمتاح صوره وأفكاره من بئر الواقع ليصوغها شعراً حافلاً بالصدق والألم والمعاناة، ولكنه لايخلو من الأمل في تغير الجانب السلبي لهذا

---

(١٧) الديوان، ص٧٦.

(١٨) حصة الرفاعي، (١٩٩٧م)، الفولكلور وقضية المصطلح، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٦٠، ص٢٤.

الواقع إلى الأفضل. وعلى هذا الأساس نختلف مع الشاعرة غنيمة زيد الحرب في قولها: «وإذا كان البعض يرى في العامية نقطة ضعف في الشاعر النبطي أو الشعبي، فإنها لاتكون كذلك عندما نعلم أنها قيلت في وقت لم يكن فيه فهم اللغة العربية الفصحى سائداً في مجتمع معظم أفراده أميون. وكانت أداة التوعية بينهم كلمة تنطق وتسمع بين الأفراد مباشرة لا عن طريق وسائل الإعلام السائدة في الوقت الحاضر. وعلى هذا الأساس كان الشعر النبطي في الفترة التي عاشها الشاعر (من عام ١٩٧٢–١٨٨٧م إذا طرحنا منها العشرين سنة الأخيرة) هو اللسان الناطق عن الأفراد المعبر عن قضاياهم وأمور حياتهم وهو المسجل للأحداث المؤرخ لها....»(١٩).

وعلى الرغم من صحة رأي المؤلفة في شيوع الشعر العامي في مرحلة لم تكتمل فيها أدوات الإعلام المعاصر، فإننا نخالفها الرأي في أمرين:

الأول – خلطها بين مفهومي العامي والشعبي. وهذا المنزلق يقع فيه كثير من غير المعنيين بالدراسات الشعبية لتعويلهم على اللغة فقط معياراً للحكم على مصداقية النص الشعبي.

ونحسب أننا استوفينا هذه المسألة في بداية البحث، ولا حاجة بنا لتكرار ما ذكرنا، ومع ذلك نؤكد أهمية تجاوز الشاعر النزعة الفردية إلى الامتزاج التام بالوجدان الجمعي.

وواضح أن الشاعر زيد الحرب قد تخطى الحد الفاصل بين الأنا والنحن ليكتسب شعره الهوية الشعبية، ويتردد على ألسنة الناس غناء وإنشاداً.

واللافت أن الكاتبة تدرك أهمية تعبير الشاعر عن وجدان الأمة، وتؤكد أن القيمة الفعلية للشاعر لاتكون إلا بإدراكه الأحداث المحلية والقومية وتفاعله وانفعاله بها. **وتستشهد بوالدها الذي تخطى الحدود الذاتية والقومية بنجاح منقطع النظير تقول:**

---

(١٩) الديوان، ص ١٦.

(..الشاعر الذي تعدى حدود الذات ليعبر عن مشاعر مواطنيه وأحاسيسهم، والذي ترجم آلام قومه وآمالهم، إلى قصائد رائعة ترنم بها البحار على ظهر سفينته، وشدا بها المزارع في مزرعته، ورددتها النساء وهن يحلمن بالعودة، عودة الآباء والأبناء والأزواج من رحلة الغوص – هذا الشاعر الذي تعدى حدود ذاته ليعبر عن مشاعر مواطنيه، لم يعترف بالحدود الإقليمية التي تفصله عن وطنه العربي الكبير، فتعدى تلك الحدود ليخط لنا خريطة العالم العربي وقد خلت من الحدود الداخلية التي تفصل بين بلد وآخر داخل الوطن العربي...)[٢٠].

وهكذا تبدي غنيمة الحرب إدراكاً واعياً بسمات الشعر الشعبي ووسائل انتشاره، التي لم يؤثر فيها صوغه باللهجة المحلية ولن يؤثر.

الثاني – قول المؤلفة بشكل غير مباشر، بإحلال وسائل الإعلام المعاصر بدائل للشعر الشعبي.

ونحن على الرغم من اتفاقنا معها في أن الشعر كان الوسيلة الإعلامية الوحيدة، وأن الكلمة الشفهية كانت بديلاً للكلمة المكتوبة، فإننا نرفض القول بأن وسائل الإعلام قد قلصت مساحة الشعر الشعبي. الشعر الشعبي لايزال إبداعاً فاعلاً مفعماً بالحياة، له محافله وشعراؤه الذين لا يزالون ينشطون في ممارسة إبداعهم جنباً إلى جنب مع ألوان الإبداع الشعري الأخرى.

ولنا في شعراء النبط في مناطق الخليج والجزيرة خير مثال على ذلك. وكذلك لم تنل وسائل الإيصال الجماهيري من الملاحم الشعبية الشائعة في أرجاء أخرى من الوطن العربي؛ فلا يزال شعراء سيرة عنترة بن شداد العبسي ورواتها ناشطين في تداولها شعراً ونثراً، في صعيد مصر، وكذلك الحال بالنسبة لسيرة بني هلال التي تشيع في أرجاء المغرب العربي.

وكما أثرت وسائل الإعلام ينابيع الثقافة، وأسهمت في تنوع مصادرها، فقد أسهمت إلى حد كبير في الحفاظ على أنماط المأثور الشعبي والعمل على نشره

(٢٠) المرجع السابق، ص ص ٢٨–٢٩.

وترويجه، فما كان يستغرق وقتاً طويلاً للانتقال عبر الزمان والمكان صار اليوم يتخطى الحدود ويشيع بين المجتمعات في فترات زمنية وجيزة. وهكذا ساعدت هذه الوسائل التقنية المتطورة المأثور الشعبي على الانفتاح على بيئات أخرى تطلع عليه وتتأثربه وتؤثر فيه، مما هيأ مجالاً رحباً للتداخل الثقافي بين الشعوب.

ثانياً – المنحى الفلسفي عن طريق التقابل في المعاني والصور:

ويبدو التقابل بين الصور والمعاني واضحاً في قصيدة (اليوم أنا أمشي على ظاهر القاع)، وهي قصيدة يفلسف فيها الشاعر نظرته للحياة على أنها حركة ونشاط على سطح الأرض، في حين أن الموت نزول إلى باطن الأرض وخلود إلى السكون وفقدان الحركة. يقول:

اليوم أنا امشي على ظاهر القاعْ ولابـد يـوم اواسـد حـدرْهـا

ثم تتوالد الصور الفرعية الناجمة عن هذه الصورة الأساسية القائمة على المقارنة بين الحركة والسكون. فالحياة حركة بكل مستلزماتها من العمل والاجتهاد في توفير لقمة العيش التي ربما تتيسر أو يعسر منالها. ولا يقتصر الأمر على الحركة الرتيبة الناجمة عن تجوال الإنسان في دروب الكون، بل ما يصاحب تلك الحركة من مشاعر حلوة أو مرة تنتج عن تحقق أمنيات الإنسان في العيش الكريم أو عدم تحققها. يقول:

بجاهد الدنيا بمجداف وشراع ما دمت أنا حي وامشي بظهرها
مرة بغبّة سور ومرة بحر باع ومرة بصافيها ومرة ابكدرها
ومر يقل الزاد ونكيل بالصاع ومر تفارات يبذك كثرها[٢١]
أنا حصان وتبعتني بمصراع يوم تسحّبني ويوم أجرها

(٢١) الصاع: وحدة وزن.

ولا سحبتني باع جريتها ذراع تبغي لي الظلمة وابغي سفرها

ويمضي الشاعر في قصيدته مصوراً صراعه مع الحياة، ثم تحدث نقلة مفاجئة يتحول فيها الشاعر من الشأن الخاص إلى الشأن العام، حين يصور حال المسلمين في ماضيهم وحاضرهم؛ فهم أتباع الرسول محمد – صلوات الله عليه – الذي دانت له الدنيا في الهند وأوروبا على أيدي صحبه الأبرار وفرسانه الشجعان، مثل طارق بن زياد فاتح بلاد الأندلس. ثم يستعرض حال المسلمين الآن وكيف انحدروا من الرئاسة إلى التبعية والذل، ويتخذ فلسطين نموذجاً على تحول العرب والمسلمين من العز والسؤدد إلى الاستسلام والخنوع. يقول:

حنا هل التوحيد في سيف وذراع وحنا سنام العز وذروة وبرها

وحنا ملوك الأرض وحنا لها سباع وحنا نجوم الليل وحنا قمرها

وحنا احسن المخلوق في خلق وطباع ورايتنا في كل وادي نشرها

محمد عبر للهند والهند له طاع وبحور أوروبا جيش طارق عبرها

ليمن حكمناها بثلاثة الارباع وربع لنا الجزية يدي ثمرها

وحنا لها راس وصرنا لها اكواع وملوكنا للروم طايح قدرها

شوفوا فلسطين بها الذل كد شاع ويهود خيبر شيعوا في خفرها

هذا السما ما زال وما زالت القاع ولا غيرت سنينها مع شهرها

أنتم تغيرتوا في شين الاطباع وذل سلب أيمانكم من صدرها[٢٢]

وأنتم تعذرتوا من قل الاوضاع وقلتوا المصانع راي اوروبا عمرها

وهكذا يمضي الشاعر في تصوير حال العرب الذين تغيرت نفوسهم من

(٢٢) شين: سيئ.

العز إلى الذل والخنوع على الرغم من أن الدنيا لم تتغير وهم مبهورون بما لدى أوروبا من مصانع هم قادرون على إنشاء مثلها ولكنهم متخاذلون يستمرئون حياة الذل والهوان، وهم كما الرماد المتخلف عن نار الشجاعة التي ميزت العرب الأول وأهلتهم لتسيّد الأرض.

ويختم الشاعر الحرب قصيدته المؤثرة بتشبيه العرب بالأموات، وهو يناديهم ولايسمعون النداء، ويتمنى في النهاية أمنية يائسة لاتتحقق حين يدعو صناديد العرب وأشاوسهم القدماء أن ينهضوا من قبورهم ليبادروا بالإصلاح، ويدفن عرب الحاضر الذين لا تختلف حالهم عن حال الموتى.

راحوا ليوث الحرب وطفوا الاشماع وظلت تخور بالمفالي بقرها

جدودكم نار بها الصمغ كد ماع وانتم رماد طايح من جمرها

ليت الذي حدر الثرى تطلعه القاع وليت الذي فوق الثرى هو حدرها(٢٣)

وتتكرر هنا ظاهرة المزج بين الأنا والنحن، وهي ظاهرة سائدة في شعر زيد الحرب.

فأغلب قصائده تعكس مدى انشغاله بالشأن العام لأمته وقضاياها المصيرية، تلك القضايا التي استقطبت كماً كبيراً من شعره.

وتجدر الإشارة إلى أن فكرة التناقض الثنائي بين الكلمات والمعاني ظاهرة مهمة في دراسة المأثور الشعبي، وقد طبقها أصحاب النظرية البنائية على دراسة الحكايات الشعبية والأساطير، وكان هدفهم من رصد المتناقضات التوصل إلى الحقيقة الكامنة وراءها(٢٤).

وها هو شاعرنا يرسم بأدواته الإبداعية البسيطة، الإطار العام لهذه

(٢٣) الديوان، ص١٥٤.

(٢٤) حصة الرفاعي، (١٩٩٤م)، الفولكلور والعلوم الإنسانية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٤٦، ص٢٩.

الفلسفة التي لم يسمع بها والتي شغلت الباحثين ردحاً من الزمن. وها هو يستغلها بعفوية واضحة، في التعبير عن حقيقة مهمة تتصل بتدهور أحوال العرب في الوقت الحاضر.

ولم تقتصر فكرة التقابل بين المعاني على القصيدة المذكورة، بل شكلت سمة غالبة في شعر زيد الحرب وبخاصة شعره القومي.

ثالثاً – عمق المعاني والدلالات:

شعر زيد الحرب يتخطى الوصف المجرد للظاهرة التي يتناولها إلى الغوص في ثناياها ليستشف منها عبرة وعظة، أو يستخدمها في الدعوة إلى منحى سلوكي أفضل سواء على المستوى المحلي أو القومي. كما في قصيدة (مجلس التأسيس) التي يقول فيها:

يا مجلس التأسيس احنا انتخبناكْ نبغيك لا تهنا بدرب تدلّهْ
ولا ضاعت الافكار نلوذ بحماك وتصير مثل الغرس نركد بظله
وانت الطبيب علاجنا مرهم دواك وانت الشفا للشعب من كل علّه
والشيخ ما قصر على الملك ولاك وارخص لك الغالي دقاقه وجلّه
واحنا على كيفك وندوّر رضاك وحقك علينا يطيعك الشعب كله
ونحب من حبيت ونعادي عداك وكل ما يطوي بعزم نفلّه[٢٥]
ولا ابتليت بسو نبلى ببلواك ونشاركك في كل درب تحلّه
كلّه لاجل هذا حنا نصبناك نبغيك مثل الدرع دون المذلّه
دين الحنيفي خلّه اليوم مبداك وشرع النبي المختار تمشي ارضا له

(٢٥) نركد (بالكاف الفارسية): ننام.

وتمضي القصيدة حتى يقول:

لا تصير مثل الملح من شرب من ماك لازم تصيبه في المصارين علّه

المجرم الخوان تضحك الي جاك واللص تسمح له ولو داس زلّه[٢٦]

وتقول لو شفته دخل منزل نساك خلّه بسبيله يروح بالك تتلّه

ذا يفتن الجمهور هذا مع ذاك ويكثر الفوضات في كل حلّه

ما تصلح الديرة وهو ذاك برداك يصبح نظامك والحكم فيه خلّه

إلى أن يقول داعياً المجلس إلى التلاحم مع الشعب من أجل بناء الوطن:

جعل الردى واللاش والغن يفداك امشي الطريج اللي مشاه بن بلّه

ولي عطيت الحق فالكل وياك لو طال حكمك مجلسك ما نملّه

وكل الاهالي طايعة تمضي امضاك ويشهد لك التاريخ وسط السجلّه[٢٧]

ونلاحظ استشهاد الشاعر بالزعيم الجزائري أحمد بن بلّه الذي قاد حركة تحرير بلاده من الاستعمار الفرنسي.

رابعاً – الثقافة الواسعة والإلمام بكل القضايا الإقليمية والقومية مع معرفة عميقة بالأحداث التاريخية:

هذه الثقافة الواسعة مكنت الشاعر من عقد مقارنات بين الماضي والحاضر كما لاحظنا في قصيدة (اليوم أمشي على ظاهر القاع)، الهدف منها دعوة أولياء الأمور إلى السير على نهج الأولين في علاج الأوضاع وإعلاء شأن الأمة. ونستشهد بما قال الشاعر في الذكرى الثانية لاحتلال فلسطين:

قلت انا ويلاه من كثر القهرْ شاب راسي وهمّلن دمع العيونْ

---

(٢٦) الزل: السجاد.

(٢٧) الديوان، ص٩٧.

من كثر ما اشوف في وقت ظهر نومس الخنزير والليث امغبون[٢٨]
يالعرب ترضون في هذا الخبر تصعد الانذال وانتم تنزلون
وتدعون انكم سادات البشر شالسبب بعزومكم ما تنهضون
من كسا فارس بالدم الحمر لين خلا الفرس عنه يرحلون
ومن هدم غيوان كسرى واشتهر ومن سقى قيصر في كاف ونون
ومن حكم الامصار في عز وفخر ومن علا صيته في ماضي القرون
ومن ترس بالبرثم فاض البحر ومن طفلهم الجبابره يسجدون[٢٩]

إلى أن يقول:

وين أبا الحسين وعثمان وعمر ومن تخلف عقبهم لو يحضرون
رجلهم الفين وانتم كا نفر وكلكم من جد واحد تدعون

وتتوالى أبيات القصيدة، فيشيد الشاعر بالكفاح الفلسطيني ضد المحتلين، ويأسف لتخلي العرب عنهم:

صاح بيت المقدس عامين وشهر يدعي الداعي ولا له تسمعون
وجاهدوا اهله في سيف او ظفر في وقود الحرب دايم يصهلون
انشدوا الشمس عنهم والقمر مع نجوم الليل لانهم يشهدون
هم ليوث الحرب في وادي الخطر وافعلوا فعل الصحابة الاولون
يوم قوم السبت لاذوا بمن كفر قاموا الاسلام فيكم يلتجون

---

(٢٨) نومس: استبد.
(٢٩) ترس: ملأ.

كخريف الصيف الى طاح المطر لا يسر الارض ولا انتم تنفعون

تزعمون عن جورج هو سيد البشر ولدنانير السياسة تركضون

وأخيراً يدعو العرب والمسلمين لنبذ التخاذل والتفكك ورفع الغشاوة عن أعينهم والنهوض في وجه المستعمر الغادر ومقارعته بالسيف كما فعل أجدادهم الشجعان؛ ليكون مآلهم الجنة التي أعدها الله للمجاهدين:

يا أمة الاسلام بابدي لي نظر اضربوا بالسيف كل خاين يخون

وانزعوا الظلمه وفوتوا للسفر ما فعلوا اجدادكم به تفعلون

حتى تنالون المعزة والفخر وفي جنان الخلد بالله تسكنون

هي لكم مضمونه دب الدهر ما دام انتم بالشهادة تنطقون

والوصل ما بينكم سر وجهر في حدود السيف وجهاد يكون

واعرفوا ان العز في راس الخطر وما يصعب أوله لازم يهون

وصلوا على المختار هو سيد البشر هو شفيع بوقت يوم تحشرون(٣٠)

وتتكرر لدى الشاعر فكرة نبذ العرب التخاذل والتمثل بالسلف الصالح في أغلب قصائده القومية إن لم يكن كلها، وهدف الشاعر من ذلك حث العرب على مقاومة كل أشكال الاحتلال البغيض وتحقيق الاستقلال والسيادة.

خامساً – حب الشخصيات القومية باعث على التذكير بمسؤوليتها تجاه الأمة:

الشاعر زيد الحرب عاصر بعض الشخصيات القومية التي كان لها فضل قيادة حركات التحرير في الوطن العربي، وأبرز هذه الشخصيات الزعيم الراحل

(٣٠) الديوان، ص١١٤.

جمال عبد الناصر الذي شغف به الشاعر، وعده الفارس الهمام الذي سوف يحيي أمجاد الأمة، ويسترد كرامتها.

ولم يكن حب زيد الحرب لعبد الناصر رومانسياً حالماً كأي إنسان عادي، بل كان حباً يمتزج بالخوف على مقدرات الأمة. وحث عبد الناصر على الحفاظ عليها، والشاعر هنا لم يخرج على الخط الوطني والقومي الذي ترسمه في شعره؛ فهو بحكم انتمائه العربي لا يستطيع أن يقف متفرجاً على مايجري هنا وهناك من مزايدات على مقدرات الشعب، بل يسخر جل إمكاناته الشعرية والمعرفية لإبداء النصح والإسهام في تقديم الحلول المناسبة.

ففي قصيدة (مخاطبة عبد الناصر) التي نظمها قبل حرب ١٩٦٧م، يختلط حب الشاعر الجارف لعبد الناصر مع خوفه على قناة السويس من سيطرة الأعداء. فقناة السويس ليست – بتصوره – ملكاً خالصاً لمصر بل ملك كل عربي حريص على كرامة العرب وعزتهم؛ ولذلك يحذر عبد الناصر من انتظار المفاوضات مع أمريكا لأن التفاوض هو سبيل التخاذل والخنوع والرضوخ للعدو والمفاوضات خدعة يتذرع بها الأعداء لاستلاب ثروات مصر والاستحواذ على مقدراتها عن طريق السيطرة على قناة السويس، وإن سيادة مصر مرهونة بتحرير قناة السويس.

والشاعر يخير القائد العربي بين حياة الذل والعبودية وحياة العز التي لاتكون إلا بالحرب والذود عن ذلك الممر المائي الاستراتيجي بكل ما يلزم من تضحيات.

ويشبه زيد الحرب قناة السويس بالوريد الذي إذا عطب لايمكن معالجة أعراضه الخطرة، كما يرى عبد الناصر سراجاً يضيء وادي النيل، ويتمنى لو يتقلد مهمة حراسة بابه ليتملى برؤياه.

ولكنه يأسى لعجزه عن ذلك لكبر سنه وفقد بصره، وهو لا يملك سوى شعره النابض بحب العروبة، ويدعو له بالنصر والسيادة على قبرص وجبل طارق والطور أسوة بأجداده الميامين.

واللافت أن الشاعر لا يذكر أسماء الشخصيات التاريخية صراحة بل يدعو إلى الاقتداء بمآثرها، وهو لايرى في التصريح أمراً لازماً فيما لو كانت الغاية المنشودة هي التأسي بالأفعال والمنجزات التي تكفي في رأيه للاستدلال على أصحابها. يقول:

عبد الناصر كان مني تبي الشورْ كثر المفاوض يا فتى ما يفيدكْ
وترى الرماد لو نفخ ما يقلب الفور ومجلس أمريكا ينقصك ما يزيدك
وبالك تظن بالطيب يمشي لك الثور الا ان تسوقه والعصا في يمينك
وان كان ما تقدر على الثور بالهور اصبر تحرقه ناركم من وقيدك
واحذر من الطاغوت لا يدور لك دور ينصب حبايل لين فخه يصيدك
ومثلك يعرف اللص هو منقع البور ان واعدك لا شك ينكر وعيدك
واخذ الحذر من راعي الكذب والجور من خوفتي ياسيد يصير سيدك
يقضب قناة سويس ويقلب على الخور وتصير له مملوك فيما يريدك(٣١)
ترى حياة الذل نار لها طور والعز بالبارود وصافي حديدك
وقولت عسا ويا ليت ما تنفذ الكور ولا تخيّط ما يشقه ضديدك
ولا يزيح الهم من داخل الزور مادام كف عداك قاظب وريدك
ياسراج وادي النيل وحق العرب نور نهض بعزم الله والله سعيدك
واطلب لك التوفيق من خالق الحور يعيد لك بالعز وحقه يعيدك
وبجاه من ناجاه في قمة الطور يجعل جميع عداك كلهم عبيدك

(٣١) يقضب: يمسك.

واسلم وسلّم لي على الشعب بسرور اولاد وادي النيل جند عضيدك

جند الا من شاف للضد منشور يشب نار الحرب ويطرد طريدك

وباقي العرب للنيل درع كما السور هم ترى يمناك وآلة عديدك

واطلب لك التوفيق منين ما تدور يكسيك ثوب العز بايام عيدك

وتحكم على قبرص وطارق مع الطور ومنين ما يممت يقرّب بعيدك

ويا ليتني عندك على الباب ناطور يشهد علي الله قلبي يريدك

لا شك مثلي يا فتى الجود معذور عود كفيف لو يجي ما يفيدك[٣٢]

ويتأكد رفض الشاعر فكرة التفاوض مع الأعداء والدعوة للأخذ بخيار الحرب في قصائد أخرى لا يتسع المجال لذكرها، منها القصيدة التي نظمها في نكسة حزيران عام ١٩٦٧م، التي يقول فيها:

لا تفاوض العدوان في كثر الاعذار الضد ماهو لك شفوق رحوم

ويقول في قصيدة (قل هو الله أحد):

واعلموا كثر المفاوض ما يفيد ومجلس أمريكا خارب ما به سعد

سادساً – ربط الشأن المحلي بالوضع العام للوطن العربي:

يربط الشاعر في بعض قصائده بين الشأن المحلي والعربي لإيمانه بأن العالم العربي حلقات متداخلة لايمكن، بأية حال، فصل بعضها عن بعض. وعلى هذا الأساس يكون صلاح الجزء مدخلاً لصلاح الكل، والعكس صحيح؛ فعلو شأن الأمة مرهون بتبدل حال أبنائها في أرجاء الوطن العربي. وهذا لا يكون إلا بتمثل السلف الصالح في القيم والمبادئ ومكارم الأخلاق.

---

(٣٢) عود: كبير السن، الديوان، ص١٣٧.

ومن الواضح أن تداخل مفهومي الوطنية والقومية في فكر الشاعر زيد الحرب ناجم عن تأثره بالمد القومي آنذاك، وهو ملمح بارز في إبداع الشعراء والأدباء في تلك المرحلة التاريخية التي شهدت سقوط الدولة العثمانية وقيام الدولة الصهيونية في فلسطين.

يقول في قصيدة (قال الراوي)، وهي قصيدة مقطعية خفيفة من بحر المتدارك، ينتقد فيها الشاعر بعض الظاهرات الاجتماعية والسياسية السلبية:

قـــال الـــراوي كـــل شـــي حـــاوي

وانـــهـــاره دايـــم مـــمـــلـــيّـــه

احـــفـــظ مـــالـــك عـــن عـــيـــالـــك

تـرى الـعـاجـل يـحـفـظ شـيّـه(٣٣)

حـــذره يـــغـــشـــك واحـــفـــظ قـــشّـــك

عـن الـحـجـي والـحـجـيّـة

ثم يقول:

بـــعـــض الـــتـــجـــار يـــطـــلـــع عـــيـــار

يـــاكـــل نـــيّـــه والـــمـــشـــويّـــه

وبـــعـــض الـــتـــجـــار اجـــواد أخـــيـــار

لـولـو صـافـي بـهـيـر اشـتـيّـه(٣٤)

---

(٣٣) العاجل: العاقل.

(٣٤) هير: مغاص.

أمـــا الـــطـــوّاش رق حـــــــوّاش[٣٥]

يـاخـذ تـعـيـب الـبـحـريـة

رحنـا اللجنـــــــه فـيـهـــا تـهـنـــا

مـثـل الـحـنـشـل نـهـيـبـيـه

رحـنـــا الـشـرطـــه طـحـنـــا بـورطـــه

هـذا وهـذا جـمـبـازيّـه[٣٦]

رحـت الـقـاضـــــي بـمـــــره راضـــي

بـاق الـغـتـره والـقـحـفـيّـه[٣٧]

وعـنـد الـحـاكـم حـذره تـشـاتـم

يـاخـذ مـالـك لـلـمـالـيـــــه

ثم ينتقل إلى الحديث عن القنصل البريطاني وهو أصل البلاء ورمز الاستعمار، تدل على ذلك أعماله في تركيا وكوريا وفلسطين. وإن الخلاص منه لايكون بالتفاوض بل بالحرب كما فعل قادة المسلمين في العصور الذهبية.

أمـا الـقـنـصـــــل ألـعـــن عـنـصـــل

مـخـبـاط أصـفـر فـي تـركـيّـا

(٣٥) الطوّاش: تاجر اللؤلؤ.

(٣٦) جمبازيّة: مخادعون.

(٣٧) باق: سرق.

حـجـيّـــــه لـيّـن وهـــو لـــعـــيّـــن
سـلّ يـاتـي شـوي شـويّـه

مـــن قـــو بـــاســـه كـــشّـــف راســـه
شـوفـوا شـسـوا فـي كـوريّـا

امـــن الـــمـــشـــرق لـيـمـا الـمـغـرب
يـلـعـب فـيـهـم طـمـبـاخـيّـه[٣٨]

ومـــن مـــد أيـــده حـــقـــه يـــريـــده
قـالـوا مـن ربـع الـشـيـوعـيّـه

يـــانـــا بـــســـوّه شـــوف شـــسّـــوه
نـصّـب دولـه يـهـوديّـه

حتى يقول:

وعـمـي وسـيـدي بـيـش يـفـيـدي
الـحـق يـوخـذ بـالـعـوجـيّـه[٣٩]

تـرى الـجـمـعـه عـز وجـمـعـه
وبـيـت الـعـالـي بـالـجـمـعـيّـه

(٣٨) طمباخيّة: كرة.
(٣٩) العوجية: العصا الغليظة.

قـــامـــوا الاســـــلام بـــــديـــــن قـــــام

مـثـل الـجـدران الـمـبـنـيـه

ومـــنـــه الـــظـــاهـــر وســـيـــفـــه شـــاهـــر

ابـن الـعـبـاس وابـن امـيـه

وانـــتـــوا مـــنـــهـــم وســـــدّوا عـنـهـــــم

وكـل سـيـل يـتـبـع واديّـه[٤٠]

سابعاً – الصورة الشعرية النابضة بالحياة والحركة:

وتتجلى القدرة على التصوير في قصيدة جميلة يوثق فيها الشاعر الحرب، الحياة الاقتصادية في الكويت قبل اكتشاف النفط، ويحيط القارئ علماً بأهم المهن التي كان يمارسها الكويتيون براً وبحراً بدقة متناهية تستحيل فيها الأبيات إلى مشاهد فوتوجرافية حية تشد انتباه القارئ إلى درجة المعايشة.

وتشبه غنيمة زيد الحرب هذه الأبيات باللوحة التاريخية التي تصور نضال الشعب الكويتي وصراعه مع الطبيعة القاسية. يقول الشاعر:

حنّا هل الديره وحنّا لها عيالْ وحنّا ذراها في الليالي الصعيبهْ[٤١]

وحنّا عليها نكد بسنين الامحال لي غار عنها الجن واخلى جليبه[٤٢]

نـاس تـكـد الـمـاي ونـاس بـهـيّـال وناس على (عشيرج) تجدح بهيبه

وهذا ترى (حدّاق) وهذاك (جمّال) وهـذاك زاروع إعـابـل شـريـبـه

وراعي الحضور يباري اليم لي سال يخاف من (لخمة) ذنبها يصيبه

---

(٤٠) الديوان، ص١٥٧.

(٤١) ذراها: ظلها.

(٤٢) نكد: نسعى في طلب الرزق.

ثم يستعرض الشاعر العناء الذي يكابده البحار وهو يصارع الأمواج في رحلات شاقة ممتدة على مدار السنة. يقول:

والقيظ كلّه انجالب الغوص بحبال مايه جما الزرنيخ وزاده نهيبه

و(الغيص) يشكي الضيم من بحرالاهوال و(السيب) واجف دوم مثل النصيبه(٤٣)

ورحنا السفر والموج ياكنّه جبال في غبّة فيها المنايا قريبه(٤٤)

ويطرح الشاعر هنا تجربة حقيقية عاشها وهو يخوض غمار المحيطات مع أقرانه الملاحين مواجهين حياة محفوفة بالمخاطر والأهوال؛ لذلك جاءت قصيدته صادقة حافلة بالدلالات الموحية، الدالة على أهمية الاتكال على العناصر الوطنية المخلصة في تصريف أمور البلد.

ولابد من الإشارة إلى أن هذه القصيدة تعدت مسألة توثيق الحياة الاقتصادية في الكويت قبل ظهور النفط إلى نقد الأوضاع في المجتمع الكويتي المعاصر. فالشاعر يخاطب فيها المغفور له الشيخ جابر العلي الصباح نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام آنذاك، ويتوجه له بالشكوى من سراق المال العام والمتلاعبين بمقدرات الشعب، ويؤكد له أن أولئك اللصوص هم من أهل البلد وليسوا غرباء، مما يجعل البلاء أعظم. يقول في مطلعها:

يا بو علي بنخاك ياطيّب الفال حيثك مقر الجود مجده وطيبه

جيتك أنا يا شيخ أشرح لك الحال من حيث مثلك من عنى له يثيبه

تهنا وضعنا بين سارق وحيال حتى المؤجّر حقنا بيغدي به

منا وفينا صايب القلب سلال ما بلادنا من جنود غريبه

(٤٣) الغيص: الغوّاص، السيب: مساعد الغوّاص.

(٤٤) الديوان، ص ص١٨ – ١٩.

وش شوفتك يا شيخ في بعض الانذال شوك دفن بالطين يابس عسيبه

هم يلعبون اليوم في خزنة المال ويطالبون الشعب بلقمة غبيبه[٤٥]

ثامناً – رمزية الزمان والمكان:

ونقصد بها استخدام الشاعر رموزاً دالة على البعد الزمني والمكاني للظاهرة التي يتناولها. ففي قصيدة (فلسطين) يتمثل الشاعر إسرائيل عجوزاً شمطاء شديدة الدهاء كما عجوز خيبر.

وترمز العجوز إلى العداء التاريخي الذي يكنه اليهود للمسلمين منذ عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – مما أدى إلى نشوب موقعة خيبر التي دارت بين الطرفين في المدينة المنورة.

فما حدث لفلسطين ليس وليد الساعة بل هو نتيجة صراع قديم بين العرب واليهود.

أما فلسطين، فهي الشابة الفتية التي يتغزل بها الشاعر، ويشتاق لملاقاتها، ويأمل في تخطي الصعاب للاجتماع بها؛ ولكن دونهما العجوز البغيضة التي تعترض سبيل الشاعر محاولة إغواءه وإلهاءه عن لقاء حبيبته:

أمس العصر وافيت سيد الرعابيبْ يشبه قمر خمسة عشر حدر الاسلابْ[٤٦]

ساعة نطحني شب قلبي لواهيب قلت: الوصل وقال: ذا الحين ما ناب

أصبر الين الشمس حدر الدجى تغيب واجعل ظلام الليل ستر لك حجاب[٤٧]

واحذر تحذّر من عيون الرواجيب والواش للفتنة على النار شبّاب[٤٨]

---

(٤٥) الغبيبة: الطعام البائت. ورد نص القصيدة كاملاً ص٧٠ من الديوان.

(٤٦) الرعابيب: الملاح، حدر: تحت.

(٤٧) الين: حتى.

(٤٨) الرواجيب: الحسّاد، الواش: النمام، الديوان، ص٩٢.

قلت: أي حزّة أجيك فيها بتراتيب أطق أنا الدفعة لو أشخط لك الباب

قالت لي: أسكت جاتنا وضعة الشيب وهذي عجوز ابليس وتدوّر الاسباب

قلت: افزّ عجل في سلام وترحيب هلبت تخلي السيل يجري مع الساب(٤٩)

قالت: عجوز من عجايز تل ابيب حدبة ظهر يشيب من شوفها الشاب

ثم ينتقل الحوار الدائر بين الشاعر وحبيبته إلى حوار بينه وبين العجوز التي تحاول عبثاً غوايته وإيقاعه في شراك مكرها، وتزين له درب الرذيلة الذي يرفضه بحزم:

قالت: هيا معي لصّيد وعندي جلاليب وكل ماتبي منهم أسحبه بكلاب

قلت: والله مالي بالعذارى مطاليب ولاني على ظنك سروق ونهّاب

قالت: اترادد من كبيرة خطاطيب اجيبهم من غير شرع ولا كتاب

قلت: انت عجوز ابليس صفرا العراجيب يا الحيّة الرقطا لا صير لك داب(٥٠)

قالت: والله لاقعد لك على الدرب بالهيب وامزعك تمزيع في روس الاهياب(٥١)

قلت: احط لك جن بوسط المداعيب ولا بد ما يصيدك حداهم بمدعاب

وهكذا يستمر حوار الاستفزاز والتحدي بين الشاعر والعجوز. وتتضمن الأبيات موصوفات شعبية وكنى شائعة في التراث العربي، مثل تشبيه الأذى بلدغة الأفعى الرقطاء، والاعتقاد بتخفي الجن في الأماكن المظلمة الضيقة كمسالك الصرف الصحي (المداعيب).

---

(٤٩) هلبت: يمكن.

(٥٠) العراجيب: الخداع.

(٥١) الهيب: القضيب.

وواضح أن الرمز الذي يفتتح الشاعر به قصيدته يستحيل تدريجياً من الإلماح إلى التصريح كلما تابعنا قراءة القصيدة. يقول:

الا كان القدس لصيحته مجيب وشفت اليهود خدّام من تحت الاعراب

قلت: لابد ما يوم نفلّ المناشيب ولا يضيع لك دين للدين طلّاب

صبري يجولك في سيوف محاديب ونرجو النصر والعز من رب الارباب[٥٢]

ويبدو التقابل بين الصور الشعرية واضحاً في هذه القصيدة، ويتأسس هذا التقابل بين نقيضين على الصراع بين الجمال والقبح والفرح والحزن والسعادة والألم والبراءة والمكر. وتتولد هذه الصور الشعرية المتضادة في نفس القارئ بصورة مطردة وهو يتابع أبيات القصيدة ويواكب تطورها الشعوري حتى النهاية. تلك النهاية التي تأتي في الغالب مفعمة بالخيبة والإحباط كما في القصائد القومية الأخرى؛ لأن أغلبها تعبير عن مشاعر العجز القومي تجاه أعداء الأمة. ويشكل هذا الملمح زاوية حادة في هذه القصيدة وكذلك في قصيدة أخرى يرثي بها الشاعر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر.

ومعلوم أن فكرة التضاد بين الخير والشر نتاج فلسفات شرقية قديمة ظهر صداها في بعض المؤلفات العربية القديمة[٥٣]. كما ارتكزت عليها بعض النظريات المعنية بدراسة المأثور الشعبي والكشف عن مضامينه الإنسانية[٥٤].

وفي النموذج المذكور ينحو الرمز منحيين أساسيين يشكلان بنية القصيدة؛ أولهما: الصراع بين الخير والشر، الذي بدا في هيئة عجوز ماكرة

---

(٥٢) الديوان، ١٠٩.

(٥٣) أشار عمر الدقاق إلى تأثر عبد الله بن المقفع بهذه الفلسفة نتيجة ترجمته حكايات كليلة ودمنة عن الفارسية، وهي ذات أصل هندي، عمر الدقاق، ملامح النثر العباسي، بيروت، لم تذكر سنة طبع، ص ص ١١٠-١١١.

(٥٤) الفولكلور والعلوم الإنسانية، ص ٤٦.

وشاب نبيل يرفض مناوراتها الدنيئة، وثانيهما: التأكيد على العداء التاريخي بين العرب واليهود، الذي أدى إلى احتلال فلسطين وقيام دولة إسرائيل.

تاسعاً – استلهام الأمثال والتمثل بالشخصيات الدينية والتاريخية:

تحفل قصائد زيد الحرب بالأمثال والشخصيات التراثية، ولا ترد هذه الاقتباسات في شعره بشكل إشارات عابرة، كما لدى غيره من الشعراء، بل تشغل جزءاً أساسياً من نسيج القصيدة وجوهرها الروحي. فالشاعر يوظف التراث للتعبير عن حالة شعورية معينة، يكون فيها الجانب المستلهم وسيلة للتنفيس عن تلك الحالة، كما في قصيدة (يا ناس قلبي بين الاضلاع محروق)، التي ينتقد فيها بعض الأوضاع الاجتماعية السيئة مثل سرقة المال العام وحرمان الغالبية من حقها المشروع في ثروات البلد، ويشبه الكويت بعين عذاري، وهي ينبوع مشهور في البحرين، ورد ذكره في المثل القائل: (عين عذاري تسقي البعيد وتخلي الجريب) يقول:

يا غيمة جتنا بها رعود وبروقْ تمطر ولا شفنا على الأرض ماها

تسقي بعيد الغرس وتسيح بعروق تذكر (عذاري) ما سقت من حداها[٥٥]

ويشير الشاعر في القصيدة نفسها إلى نمط من الألغاز الشعرية المعروفة في التراث الكويتي وهو (الدرسعي)، ويستغله للتعبير عن أمله في أن يفهم المسؤولون معنى قصيدته التي فسرت اللغز، ويعملوا على إصلاح الأمور.

هذا جواب اللغز باعلان مطقوق ويفهم حروف الدرسعي من قراها

ويضمن الشاعر قصائده أمثالاً أخرى للغاية الوظيفية نفسها. يقول في قصيدة نظمها بمناسبة تأميم شركات النفط في إيران عام ١٩٥١م:

طاح الجمل والشيل من غاربه مالْ كثروا سكاكين اللحم للبعير[٥٦]

---

(٥٥) الديوان، ص ٩٣.

(٥٦) الديوان، ص ٣٩.

وهو ينوه بالمثل القائل: (لي طاح الجمل كثرت سكاكينه)

ولايكتفي الشاعر بإيراد الأمثال العامية بل يطوع مقولات مصوغة بالفصحى لخدمة المعنى المقصود.

يقول في قصيدة للرد على ادعاءات عبد الكريم قاسم بضم الكويت:

هذا الفخر ان كنت غوج تقادي ماهي دعايات وحبر في جريدة(٥٧)

وهو يستلهم المقولة الشائعة (حبر على ورق)، وتعني كلاماً غير قابل للتطبيق.

أما الشخصيات الدينية، فقد اتخذها الشاعر مثلاً يحتذى في الصبر والاحتمال والشجاعة في مواجهة الصعاب. يقول في قصيدة (صبرت صبر أيوب):

صبرت صبر أيوب ويوسف وذا النون مير الصبر للقلب يا ناس ما ثابْ

ويقول في القصيدة نفسها:

وعنده محامي يا فتى الجود ملعون فرعون مع هيمان كلهم ترى كلاب

وكلهم ترى عدوان موسى وهارون والله لعن لثنين في دين وكتاب(٥٨)

وتبقى بعض القصائد التي دلت بوضوح على تأرجح فكر الشاعر تبعاً للظروف التي يمر بها، منها قصيدته التي يؤكد فيها قناعته وعدم حبه للمال، والتي تناقض أبياتاً أخرى يقر فيها بأهمية المال وسيلة لنيل العز والسؤدد، وربما كان لظهور النفط وتغير أسلوب العيش في الكويت أثره في نفس الشاعر؛ مما أدى إلى تغير ملموس في بعض آرائه. فبينما يقول في إحدى قصائده المعنونة (شوفوا العرب):

---

(٥٧) الديوان، ص٥٨.

(٥٨) الديوان، ص ٩٥.

ما همني المال يا ناس لو زادْ الخير عند الله والارزاق وايدْ

همّي انا يا ناس من ضد الاضدادْ ولا هم الا هم غبن الضدايدْ

شوفوا العرب ما بين الاشجار بالداد كيف اليهود يطشرون البدايد(٥٩)

امّا صدمناهم على الخيل بطراد ليما نسيد اللي على القدس ساير

يحرم علينا النوم والشرب والزاد ويحرم علينا هدوم لبس جدايد(٦٠)

وان ما فعلنا وا عسانا لانفاد وخلوا الحكم للابسات القلايد(٦١)

بيض تكيد بكيدها كل من كاد حسن من رجال بليّا فوايد

ويقول في الثانية:

ان كان عندك مال يصير لك كار لو نك سواد الليل قالوا قمرها(٦٢)

وان كان ما تملك من المال دينار اخير بطن الارض لك من ظهرها

ترى حياة الذل ترّث لك العار وموتك على عز يرفع قدرها(٦٣)

ويبدو أن التغير الذي طرأ على رأي الشاعر مرهون بالموضوع الذي يتحدث عنه والظرف النفسي الذي يمر به. ففي الأبيات الأولى يتحدث عن قضية فلسطين التي يهون في سبيلها المال، أما الثانية فيتناول فيها ظاهرة عامة في المجتمع، وهي أن قيمة الإنسان أصبحت تقاس بمقدار ثرائه.

---

(٥٩) يطشرون: ينثرون.
(٦٠) لابسات القلايد: النساء.
(٦١) الديوان، ٣١.
(٦٢) كار: شأن.
(٦٣) الديوان، ص ١٩٧.

ولا نعتقد أننا غطينا في هذه العجالة، مجمل القصائد التي أبدعتها ريشة الفنان زيد الحرب، ولا نظن أن دارساً واحداً قادر على استدعاء ذخيرة من اللوحات الفنية التي رسمها زيد الحرب بمداد قلبه النابض بصور العيش الأمثل، عبر سنين طويلة. ولكننا اجتهدنا – قدر المستطاع – في استيفاء القصائد التي ترشدنا إلى النهج العام في تجربته الشعرية الفريدة.

البنية الإيقاعية في شعر زيد الحرب:

أولاً – القصيدة العمودية:

تخضع القصيدة العمودية لدى زيد الحرب لشكلين فنيين؛ أولهما: القافية المزدوجة أو المتواترة، وهي نظام شائع في الشعر الشعبي والعامي في الكويت ومنطقة الخليج العربي لملاءمتها الغناء، ومعروف أن الغناء الشعبي، في أغلبه، أداء تكاملي تشترك فيه المجموعة مع الفنان في الأداء. والقافية المزدوجة عامل مساعد على الترديد وتبادل الأدوار بين المغني والكورس. ومن القصائد التي نظمها الشاعر على هذا النسق (القادسية مقدّسه) التي يتذمر فيها من تأخر وصول التيار الكهربائي إلى هذه المنطقة من مناطق الكويت:

القادسيه مقدّسهْ والكهربا فيها حرامْ
صار الضوا للمدرسه واحنا مع المسجد ظلام
الشيخ والله ما نسى مير السبب ولد الحرام
هو يدعي بالهندسه لا شك ما يمشي تمام(٦٤)

ولايقتصر هذا الشكل الصياغي على القصائد ذوات الأوزان الخفيفة، بل يتعدى ذلك إلى أوزان شعرية أخرى كما في قصيدة (ثوروا على الدنيا). يقول:

ثوروا على الدنيا بني عم واخوانْ والا ترى الضد ما تقدرونهْ

(٦٤) الديوان، ٩١.

هذا اليهودي ان كان هو بالعهد خان معريه حد السيف صفّة قرونه

مثل البغل هو يدعي خاله حصان وينسى ابوه حميّر يركبونه(٦٥)

وثانيهما: التزام الشاعر شكل القصيدة التقليدية في إيراد قافية موحدة في عجز الأبيات كما في قصيدته (الكويت ربّتنا وفيها ربينا)، يقول فيها مشيداً بفضل وطنه الكويت الذي يكن له عميق الحب والولاء:

الكويت ربّتنا وفيها ربينا هي أمنا واحنا ترانا عيالها

ودار ربّتنا وربّت جدودنا والكل منا رابي في ظلالها

دار تدللنا على كل حزّه اهي تدللنا وحنا دلالها

دار كستنا العز وثوب الجمايلْ هل كيف ننساها وننسى جمالها

والله لو دوّرت بالشرق كلّه ودرت الجنوب وغربها مع شمالها

حرام ما تلقى بالاوطان مثلها ولا يعوضك بالبلادين بدالها(٦٦)

ويستطرد الشاعر معدداً أفضال الكويت التي جاوزت القريب إلى الغريب المطرود من بلده، الذي أخنى عليه الدهر، فوجد في الكويت الوطن البديل والملاذ الآمن. ثم يشيد بدور آل الصباح في الدفاع عن الكويت وحمايتها من الأعداء الطامعين فيها:

مزبان للمطرود واللي مجلا ومن صكّته سود الليالي عنى لها

دار السعد والجود والمجد والكرم على العرب تمطر سحايب حلالها

دار الصباح اللي بعزم حموها عدوها لا تظن بيده ينالها

(٦٥) الديوان، ص ٢٥.

(٦٦) الديوان، البلادين: البلدان.

جد راودوها الروم والترك والعجم واولاد سالم اوقفوا دون جالها

بر وبحر بالبنادق حموها خاضوا المعارك ما خشوا من اهوالها[٦٧]

ثانياً – النظام المقطعي:

وهو قالب فني معروف في الشعر الشعبي، يصوغ فيه الشاعر قصيدته على هيئة مقطوعات، تحل فيها الشطرة محل البيت في كونها وحدة القصيدة.

ويرتكز بناء القصيدة المقطعية لدى زيد الحرب على نموذجين فنيين؛ هما:

١– نموذج رباعي يقوم على إيراد أربع شطرات تتفق فيها قافية الشطرات الثلاث الأولى، وتأتي الشطرة الرابعة مستقلة بقافيتها ووزنها. ويردف الشاعر هذه المقطوعة بمقطوعات أخرى على النسق نفسه ولكن بقافية مختلفة في الشطرات الثلاث الأولى، بينما تتحد قافية الشطرة الرابعة على امتداد القصيدة، وتكون بمنزلة قفل يتكرر في خواتم المقطوعات.

وتتفق هذه التركيبة الفنية مع أشكال الشعر الشعبي المعروفة في التراث العربي، وبالأخص شعر الموال، ومعلوم أن الموال شاع في العصر العباسي، وانتشر في أرجاء الوطن العربي، وتفنن الشعراء في أشكال نظمه فظهر منه الشكل الرباعي بألوانه البنائية والخماسي والسداسي والسباعي. وبالغ بعض الشعراء في إيراد شطرات تجاوزت المئات، وهو اللون الذي اصطلح عليه الموال القصصي أو البالاد[٦٨].

ومن أشهر القصائد الرباعية للشاعر زيد الحرب قصيدة (عسر الدهر) التي استشهدنا بها في معرض حديثنا عن ملامح شعره، ونرجح أن يكون الشاعر قد استوحاها من التراث الغنائي البحري؛ ولذلك صاغها على هيئة

(٦٧) الديوان، ص ٥٣.

(٦٨) أغاني البحر في الكويت، ص ص١٧٥–١٨٥.

مقطوعات رباعية تنسجم مع موضوع القصيدة الذي يتناول الخلاف الدائر بين أصحاب السفن والبحارة حول دفع مخصصاتهم.

ونستشهد بمقاطع من قصيدة أخرى صاغها على النظام نفسه مع اختلاف الوزن، وهي قصيدة (الوطن أول وتالي) إحدى قصائد الشاعر الوطنية. يقول فيها:

الـــوطـــن أول وتـــالـــي نـشـتـريـه بـكـل غـالـي
نـبـغـي الـمـرقـب الـعـالـي ونـجـمـع الـراي الـرشـيـدْ

الـوطـن زيـنـه اطـبـاعـهْ مـحـد مـن الـشـعـب بـاعـهْ
كـلّـنـا بـمـر وطـاعـه بخدمته نمشي عبيد(٦٩)

٢- نموذج ثلاثي تتفق فيه قافية الشطرتين الأولى والثانية، وتنفرد الثالثة بقافيتها ووزنها، كما في قصيدة الشاعر الساخرة (قال الراوي)، التي أوردنا نصها في معرض الحديث عن سمات شعره. والملاحظ أن زيد الحرب لم ينظم قصيدة أخرى على هذا المنوال فيما ورد في الديوان.

خلاصة:

بعد هذه الرحلة الشيقة في ثنايا فكر الشاعر زيد الحرب وتضاعيف شعره، نخلص إلى ما يلي:

أولاً - زيد الحرب شاعر شعبي بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لا لأنه اختار العامية وعاء لصب أفكاره بل لأنه عزف على وتر الوجدان الجمعي بمقدرة نادرة لم يضاهها شاعر آخر سواء على الصعيد المحلي أو القومي؛ ولهذا السبب ذاع شعره بين أبناء مجتمعه ممن وجدوا فيه مرآة عاكسة لمشكلاتهم اليومية،

(٦٩) الديوان، ص٤٧.

جاوز فيها الشاعر الطرح المجرد لتلك المشكلات إلى إبداء الرأي واقتراح سبل التقويم والمعالجة.

الشاعر زيد الحرب وظّف إبداعه الشعري لغايات تسامت كثيراً على المنفعة الذاتية؛ فلم نسمع في شعره إلا توق الشعب لحياة أفضل، وهذا ملمح آخر من ملامح الإبداع الشعبي، يصبح فيه الإبداع صوت الناس المسموع، ورسالتهم إلى ضمائر الحكام، ناهيك عن تميز شعر زيد الحرب بالصدق والتلقائية، وهما سمتان غالبتان على الشعر الشعبي.

ولاتفوتنا الإشارة إلى خصيصة الشفاهية، وهي علامة بارزة في المأثور الشعبي؛ فالفنان في مرحلة ماقبل التدوين كان يتداول عصارة أفكاره بالنقل الشفهي، ولم تنل الكتابة التي ظهرت فيما بعد من هذه الظاهرة التي استمرت قوة كامنة توجه المأثور الشعبي نحو غاياته المنشودة، ولم يؤثر فيها اتجاه بعض الفنانين أو بعض أقربائهم إلى تدوين مؤلفاتهم على سبيل الحفظ والتوثيق؛ فإبداعهم انتشر أصلاً بالنقل الشفهي.

ومعلوم أن قصائد زيد الحرب شاعت بين الناس إنشاداً وغناء قبل صدور ديوانه بسنوات طويلة، واعترفت فيه ابنته التي تعهدت بإصداره، بضياع كم كبير من شعره.

ثانياً – زيد الحرب روح شفافة جالت مسالك الحياة ودروب الزمن لتنثر عبق الحب والسلام، وترسم صورة العيش الأمثل. وهذه الروح الهائمة نجحت في تحقيق أمنيات ونبوءات أسعدت صاحبها حيناً، وأرقته أحياناً بخوفه عليها من التداعي والانهيار.

ولا أدل على ذلك من تنبئه بالثورتين المصرية عام ١٩٥٢م والعراقية عام ١٩٥٨م.

تقول غنيمة زيد الحرب في الديوان: (وكان الشاعر إلى جانب وعيه السياسي والقومي يتمتع بنوع من الحدس السياسي يتمثل بالتنبؤ ببعض

الأحداث السياسية في بلد معين مستشهداً بما يحدث في بلد آخر في ظروف مشابهة.

فقد تنبأ بالثورة المصرية التي حدثت في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م، وكان هذا في عام ١٩٥١م عندما قام رئيس وزراء إيران في ذلك الوقت بتأميم شركات النفط الأجنبية في إيران:

إن كان في مصر صناديد ورجالْ ما صار في (طهران) فيها بصير
وان عاش له (النحاس) وزانت الاحوال ما عاد له بالشرق مفرش حصير
واذنابه الخوان كنازة المال لا بد ما يرغون عقب الهدير
طاح الجمل والشيل من غاربه مال كثروا سكاكين اللحم للبعير(٧٠)

وتضيف قائلة: (وقد لا يكون التنبؤ بالثورة حدثاً غريباً في حد ذاته، ولكنه يكون كذلك عندما يحدد الشاعر شهر تموز موعداً لقيام الثورة العراقية التي حدثت في ١٤ تموز عام ١٩٥٨م.

والشاهد على ما نقول الأبيات الأولى من قصيدة قالها الشاعر إثر أحداث الحرب الأهلية في لبنان في ذلك الوقت:

لا شك فيهم ذل مما يخافون خوف تثور شعوبهم سر وجهارْ
وهذا صحيح العلم لازم يثورون ما يلبسون الذل فروخ الاحرار
اما بشهر (آب) والا بتمون يجيك من (بغداد) تفصيل الاخبار
أصبر قليل شوي وفيهم تشوفون ما صار في لبنان بيعم الاقطار
ولا بد ما يوم به الحرب بيكون بين العرب والغرب بتشتعل نار...)(٧١)

(٧٠) الديوان، ص٣٩.
(٧١) الديوان، ص٤٠.

ثالثاً – لا يختلف بناء القصيدة لدى زيد الحرب عن غيره من أنواع الشعر الشعبي المعروفة في البيئات العربية؛ فهو إما أن يلتزم شكل القصيدة العمودية ذات القافية الواحدة أو المزدوجة أو يصاغ على نسق المقطوعات متعددة القوافي.

رابعاً – تخضع قصائد زيد الحرب لأوزان الشعر العربي، كما يجمعها وجه شبه مع أوزان استخرجها بعض دارسي الشعر النبطي، وعدوها أبحراً خاصة به.(٧٢)

وتجدر الإشارة إلى أن بحر البسيط من الأبحر التي استهوت شعراء العامية فصاغوا عليه أغلب أشعارهم، مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلافات اللهجية بين مناطق الوطن العربي، وتأثر الشاعر بالظواهر اللغوية الخاصة بلهجته كقلب الحروف والإبدال والمد والإدغام، بالإضافة إلى بعض السمات ذات الصلة بمخارج الحروف، التي تسوغ للشاعر إيجاد التقارب الصوتي بين قوافي القصيدة، وتبدو هذه السمات اللغوية أكثر وضوحاً لدى سكان الخليج العربي.

والملاحظ أن هذه الظواهر التي ميزت لهجات الخليج لم تحل بين الشاعر وأدواته الإبداعية بل على عكس ذلك، أمدته بمعين لا ينضب من المفردات والتعابير التي أعانته كثيراً، وأثرت تجربته الشعرية ليحقق الغاية التي ينشدها.

ويبدو ذلك واضحاً في شعر زيد الحرب؛ فعلى الرغم من تنوع أبحر الشعر لديه بين البسيط والمتدارك والرمل مع مراعاة ما يطرأ على هذه الأبحر من علل ناجمة عن طبيعة اللهجة المحلية، فإن الشاعر نجح كثيراً في تطويع هذه الملامح اللغوية في التعبير عن آرائه وأفكاره بحرية شديدة. ولانغفل ظاهرة اللحن التي يلجأ إليها الشاعر أحياناً للضرورة الشعرية، وهي ملمح بارز في الشعر الشعبي.

ومما يسترعي الانتباه وجود نماذج من أوزان الشعر النبطي مندسّة بين

(٧٢) راجع كتاب طلال السعيد، (١٩٨١م)، الشعر النبطي، أصله، تطور فنونه وأوزانه، الكويت، ص ص ٢٦ – ٥٣.

طيات قصائد زيد الحرب، وهذا يدحض زعم بعض الدارسين بأن الشعر النبطي ظاهرة مستقلة عن الشعر الشعبي، وهم يرتكزون في دعواهم على طبيعة لهجته البدوية وأبحره المستقلة من جهة، وعلى كونه سجلاً حافلاً بالوقائع والمعارك التي دارت بين القبائل من جهة أخرى. وسوف نناقش هذه المقولات بعد استعراض نماذج من شعر زيد الحرب تتماثل مع أوزان الشعر النبطي، منها قوله:

يا غيمة جتنا بها رعود وبروقْ تمطر ولا شفنا على الأرض ماها

يشبه البيت المنسوب لأحد شعراء النبط:

يقول الخلاوي حاضر الراي صايبهْ مصاب الحشا ما دهي بادها مصايبهْ(٧٣)

وهو من بحر الهلالي.

وقوله:

الكويت ربّتنا وفيها ربينا هي أمنا واحنا ترانا عيالها

جاء قريب الشبه بالبيت القائل:

نفسي تمنّيني لرقي السنودي مع لايتن على الزعلان والخد ممدودْ(٧٤)

وهو من بحر المسحوب.

وفي قوله في الفنانة الشعبية الكويتية عودة المهنا:

عودة المهنا تشيل فنونْ وتواجب الصوت بالطاره

بن حرب في كاظمة مسجون عند الكفر ضاعت أفكاره

(٧٣) المصدر السابق.

(٧٤) المصدر السابق.

يشبه في الوزن بحر الهجيني:

يـا حـمـود انـا عـارضـي شـابـي طـرد الـهـوى جـزت انـا مـنّـه[٧٥]

ولعل هذا التشابه بين أوزان الشعر النبطي والشعر الشعبي يقنع البعض بعدم جدوى التمييز بين أنماط الشعر الشعبي مما تتوافر فيه الشروط المطلوبة لهذا اللون من النشاط الإنساني[٧٦].

ومن هذا المنطلق نود التنويه ببعض الحقائق التي تمد جسور التواصل بين الاثنين، وتجمعهما تحت مظلة واحدة:

أولها – أن العلاقة الحميمة بين الشعرالشعبي والغناء، طوعت أوزانه لملاءمة الألحان، وهذا يؤكد لنا أهمية الظواهر اللغوية التي أشرنا إليها آنفاً كالمد والإدغام والقصر، التي تطرأ على النص لملء الفترة الزمنية التي يستغرقها اللحن. وهذه الظاهرة الواضحة في الشعر الشعبي، ربما أوحت للبعض بوجود أبحر خاصة بالشعر النبطي.

ثانيها – أن أوزان الشعر العربي سواء الفصيح منه أو العامي، مستمدة من طبيعة اللغة العربية وخصوصية تراكيبها؛ فاللغة العربية لغة مقطعية يراوح فيها المقطع بين الطول والقصر.

وعلى أساس هذه الطبيعة المتفردة صاغ علماء العرب نظرياتهم العروضية، بالإضافة إلى دراستهم الشعر العربي الذي نشأ في مراحل متقدمة جداً على ظهور تلك النظريات.

وهذا دليل ساطع على أن أوزان الشعر العربي مهما اعتراها من عيوب اللغة أو اللهجة، فإن قواعدها الأساسية تبقى ثابتة تدور في فلكها كل أشكال النظم.

ثالثها – لاتصلح لغة القصيدة أو أغراضها أو ألوانها العروضية معايير

---

(٧٥) المصدر السابق.

(٧٦) المصدر السابق، ص ١٢٤.

للحكم على مدى شعبيتها أو النظر إليها على أنها نوع مستقل من الشعر؛ لأن هنالك خصائص متعارفاً عليها بين دارسي المأثور الشعبي، للتمييز بينه وبين أنماط الإبداع الأخرى تناولناها سابقاً. كما أن موضوعات القصيدة النبطية لم تخرج عن دائرة الموضوعات التي استرعت اهتمام الشاعر العربي منذ القدم مع ملاحظة التغير الذي يعتريها بتغير الزمان والمكان. ونرجح أن تكون هذه المظاهر حافزاً مشجعاً على عقد دراسات مقارنة بين الشعر الجاهلي والشعر النبطي، بعضها باللغة العربية والبعض الآخر بلغات أجنبية يسترشد فيها الباحثون ببعض نظريات الفولكلور المعاصرة(٧٧).

(٧٧) راجع: عبد الله بن خميس، (١٩٧٤م)، الشعر النبطي امتداد للشعر الفصيح، بحث مقدم في مؤتمر الأدباء السعوديين الأول، ج ٢، مكة المكرمة، ص ص ٦٧٧-٦٩٦.

وأيضاً:

M. Zwettler. (1975), The Oral Tradition Of Classical Arabic Poetry: its Character and Implications. Ohio State University Press.

المراجع

أولاً – المراجع العربية:

- حصة الرفاعي، (١٩٨٥م)، أغاني البحر في الكويت: دراسة فولكلورية، الكويت، ص ٩٨.
- حصة الرفاعي، (١٩٩٤م)، الفولكلور والعلوم الإنسانية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٤٦، ص ٢٩.
- حصة الرفاعي، (١٩٩٧م)، الفولكلور وقضية المصطلح، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٦٠، ص ٢٤.
- طلال السعيد، (١٩٨١م)، الشعر النبطي، أصله، تطور فنونه وأوزانه، الكويت، ص ص ٢٦–٥٣.
- عبدالله بن خميس، (١٩٧٤م)، الشعر النبطي امتداد للشعر الفصيح، بحث مقدم في مؤتمر الأدباء السعوديين الأول، ج ٢، مكة المكرمة، ص ص ٦٧٧–٦٩٦.
- عبدالله العتيبي، (١٩٨٤م)، دراسات في الشعر الشعبي الكويتي، الكويت، ص ١٨.
- عمر الدقاق، ملامح النثر العباسي، بيروت، لم تذكر سنة طبع، ص ص ١١٠–١١١.
- غنيمة زيد الحرب، (١٩٧٨م)، ديوان زيد الحرب، الكويت، ص ١٩٥.

ثانياً – المراجع الأجنبية:

- M. Zwettler. (1975), The Oral Tradition Of Classical Arabic Poetry: its Character and Implications, Ohio State University Press.